يسعون في تعزيز لغة البلاد ورفع منارها الذين تشيد لهم تآليفهم المتعددة وكتاباتهم اليومية . . .

لكنّ الآباء اليسوعيين لهم من فضائلهم ومآثرهم ونذورهم ما يُغني عن كلّ وسام

أنّما انا فكلّما ذكرتُ ذلك الوسام ، أشعرُ باضطراب في نفسي . لانّ الوسام عنوانٌ كتبتهُ الدولة ، ووضعتهُ على صدر حامله ، شهادةً منهـا للناس ببيان ما انطوى عليه ذلك الصدرُ من فضائل الغيرة والعمل . فاذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكتوب في القلب ، كانت كبائع يغشّ الناس في وضعه على قنينة العطر ، عنوان ماء الورد

لذلك أسألكم الدعاء ، ليجعل الله في قلبي مثل ما في قلوب رؤسائي من عواطف المحبة والغيرة على الدين والعلم والوطن فأواصل العمل معهم على تخريج الشبيبة التي آليتُ على نفسي ان اخدمها ما بقيت فيَّ حياة !

انَّ الشبيبة التي نُعلّمها المعارف والآداب والدين ، هي وسامي ووسامُ كلّ استاذ

. . .

أمّا كلمتي للآباء والسادة والخطباء الذين تلطفوا فحضروا وشاركوا طلبتنا التدماء في هذه الحفلة العيلية ، فهي كلمتي المحكومة الافرنسية الجليلة صاحبة الغيرة على بلادي ووطني ، هي كلمتي لحضرة رئيسنا الوقور ، هي كلمتي للطلبة الاعزّاء ، هي كلمةُ الشكر والعرفان

صدقة الميلاد

الصدقة تنجي من الموت (طوبيا ١٢ : ٩)

بقلم الاديب يوسف بطرس سعد

في جلسة ١٧ كانون الاول من السنة الفائتة ١٩٢٢ التي عقدت في ردهة جمعية القديس منصور دي پول في بيروت اقترح رئيس الجمعية على الحاضرين من اعضائها اقتراحاً تقوياً خيرياً اوحت به نفسهُ الشريفة قال :

« يحسن بنا نحن اعضاء شركة القديس منصور ان يدعو كلٌّ منّا الى منزله ليلة عيد الميلاد الشريف ثلاثة فقراء ويبالغ في ضيافتهم واكرامهم فيتزلهم في فكره منزلة العائلة المقدّسة التي لم يكن لها في مثل هذه الليلة مَن يأويها الى منزله وبذلك نقوم بعمل تقوي خيري لا شك انه يصيب حظوةً لدى الله تعالى »

كان هذا الاقتراح كجذوة اسعرت في افئدة الحضور نار محبة الاحسان وعزم اكثرهم على القيام بهذا المشروع الصالح رغبةً منهم في اتيان المبرّات وتحقيقاً لنيات رئيسهم المفضال

وكانَ اعضاء هذه الجمعية المباركة لم يشاءوا الاستئثار باقتراح رئيسهم فيتمموا هذا العمل المبرور دون سواهم . فانهم سعوا في نشره كلٌّ بين معارفه واقربائه فوقف عليه ذوو الصلاح من اهل المدينة وصادف استحساناً عند كثيرين من العائلات التقيّة

*

كان من جملة الذين عوّلوا على العمل باقتراح رئيس جمعية القديس منصور عائلة عُرفت منذ القدم برسوخها في الدين وإقبالها على الاعمال الخيرية . وكان لهذه الاسرة الفاضلة وحيد عزيز ومعين نشيط قد هاجر من البلاد الى الديار الاميركية منذ نحو عشرين سنة واصاب هناك ثروة واسعة في مزاولة التجارة لكنه حاد بسبب دخوله في احدى الشيع السرّية عن جادّة الدين وانهمك في الالحاد والكفر بكل عقيدة وايمان شأن الكثيرين من ابناء وطننا الذين يهجرون الوطن فيستوطنون الهجر وهناك ينبذون التراث الذي خلّفهُ لهم جدودهم الاماجد اعني به وديعة الايمان المقدّس معلقين آمالهم بحطام هذه الدنيا لا همّ لهم الّا جمع المال مهما كلفهم ذلك من التضحية الادبية والدينية

*

نزل صاحبنا سليم في مقاطعة من انحاء البرازيل كثيرة الغابات المشجّرة باشجار المطّاط (الكاوتشوك) واتخذ الاتجار بهذا الصنف الرائج سوقه في العالم كله شغلاً له فكان يقوم في خدمته قوم من العبيد الاشداء البنية من اعلاج تلك البلاد يرسلهم افواجاً الى غابات اشجار المطّاط اثناء اجرة زهيدة حيث كانوا يعمدون الى هذه الاشجار

بياضع مخصوصة فيشرّحون جذوعها مستنزفين ماءها الذي هو المطّاط بذاته وينقلونهُ اليهِ على اكتافهم وهو يصدّره على حالته هذه الى العامل الاميركية والاوربية فيبيعه من اصحابها باثمان غالية حتى اصبح غنيًّا مشهورًا في تلك الاصقاع

ولا عجب فاللبناني والحمد لله اينما حلَّ اعرب عن ذكاء عظيم وتوفّق في اكتساب الرزق اللهمَّ الّا في بلاده فكم تعهدهُ عاجزًا عن تحصيل ما يقوم باوده . وهذا سرّ لم يتمكن احد من حلّ رموزه رغم معالجته

ففي اوائل كانون الاول من السنة الفائتة اراد وطنيّنا سليم ان يوسّع تجارته هذه وقد ارهقته بالطلب المعامل التي يتعاطى معها والحّت عليهِ ان لايدع وسيلة تمكنه من زيادة الاصدار الّا يستعملها . فلم يرَ بدًّا لارضاء زبائنهِ من ان يذهب هو بذاته الى غابات شجر المطّاط ويتلافى بنفسهِ الصعوبات التي تحول دون الزيادة في الانتاج ليذلّلها بذكائهِ المعهود وان كان دون الوصول الى تلك الغابات خرطُ القتاد وقد طالما وصف لهُ اهوالهَا عبيدُهُ الامناء منها قطعُ نهرٍ يؤدّي اليها والذي ذهب في تيّارهِ بكثيرين من هؤلاء العبيد

*

اخذ صاحبنا الأهبة لسفرهِ وسار مسافة يوم واحد على ظهر دابّه حتى بلغ الى بلدة واقعة على ضفة النهر المراد اجتيازه فاكترى لهُ ولعبيده زورقًا بخاريًا متينًا وسار بهِ يشقّ عباب المياه ، وكان قصدُهُ بذلك ان يختبر الامر حتى اذا تهيَّأ لهُ اجتياز النهر على ذلك الزورق عمد الى استعمال الزوارق في اجتيازه واستغنى بنقل المطّاط عليها عن كثير من العبيد ، وكان هؤلاء العبيد اعتادوا قطع النهر متكلين على قوة سواعدهم وتفوّقهم في فن السباحة وهم حاملون على اكتافهم نتاج شجر المطّاط

سار بهم الزورق مسافة احد عشر ميلًا بحريًا حتى انتهوا الى الغابات المقصودة وهناك القوا المرساة وتسلّقوا الجبال فرحين بنجاح عملهم . وسُرَّ سليم لوفرة ما كان يرجوهُ من الربح بواسطة هذا الزورق الذي يحمل في السفرة الواحدة ما كان يعجز العبيد عن حمله في عدّة سفرات

ولما انتهى العبيد مع سيدهم الى غابات المطّاط ابتدأوا عملهم المعتاد وكان هو يراقبهم علّه يتوفق الى طريقة تزيد عملهم سرعةً فوجدهم بارعين في العمل لا ينقصهم

شي.. فكانوا يعمدون الى جذع الشجرة ويضعونه عدة بضعات ويتركون ماءها يسيل على الحضيض ويذهبون الى غيرها وهكذا يقضون نهارهم وفي اليوم التالي يعودون الى الشجر المشروط ويلتقطون الماء المتجمد على الحضيض تحت كل جذع. وفي اليوم الثالث يهتمون بنقله الى شاطئ النهر.

وعلى هذا النمط استغرق عملهم لتجهيز محمول الزورق نحو العشرين يوماً وكان عددهم اربعين عبداً ومجموع وزن الشاط يُقدّر باربعين قنطاراً

ففي صباح الخامس والعشرين من شهر كانون الاول أقلعوا بزورقهم قاصدين المدينة التي نزلوا منها فما قطعوا مسافة بضعة اميال عن الشاطئ حتى هبّ اعصار في النهر وهطل المطر بغزارة وهاجت مياهُ النهر وعلت فوق الزورق. فادركوا الخطر المحيق بهم واخذوا يعالجون سير الزورق بما عندهم من الخبرة لكنّ الامواج طغت عليه فانقلب بهم وطرحهم في اليمّ الذي اخذ يتجاذبهم بعنف شديد حتى ايقنوا بدنوّ اجلهم واصبحوا ينتظرون الموت دقيقة بعد اخرى

وكان من اخلاص هؤلاء العبيد لوليّ امرهم ان احدهم عمد الى سيده فحملهُ على ظهره مؤثرًا نجاته ولو تكلّف عرق القربة. وما زال يعارك تيّار اليمّ وصاحبنا يتأبط عبده حتى بلغ به نحو غروب الشمس الضفة الثانية من النهر فالقاه هناك على الحضيض خائر القوى من شدّة البرد القارس. وفي اثناء ذلك كان العبيد رفقاؤهُ يصارعون المنيّة يستنجد الواحد منهم الآخر كأنما شعر بجوار قواه رغم كونهم قد اعتادوا اجتياز النهر لشدّة العاصفة. وكانت خسارتهم في تلك السفرة خمسة من رفقتهم خانتهم القوى فابتلعتهم اللجة

*

في تلك الساعة الرهيبة التي مرّت على صاحبنا سليم وهو متشبّث باكتاف عبده وامواج النهر تتقاذفه والريح الصرصر تعمل في جسمه الناعم كانت عائلته في بيروت تقوم حسب اقتراح رئيس جمعية القديس منصور بضيافة ثلاثة من الفقراء يمثلون العائلة المقدسة محتفين بهم احتفاء بلغ حدًّا لا يجارى. فكانت والدته ووالده وشقيقتاهُ يقدّمون الطعام بايديهم الى اولئك الفقراء مبالغين في اكرامهم ومقدمين عملهم هذا لاجل توفيق وحيدهم ومعينهم المتغيّب عنهم وهم لا يدرون ما يحيق به في

تلك الساعة من الخطر الداهم

اما هو فقد نقلهُ عبيدهُ الى محلهِ سالماً واوّل ما فكّر فيهِ بعد وصوله انهُ اسرع فاخبر عائلته بما جرى لهُ مُقرًّا انه بفضل صلواتهم التي لاشك انهم كانوا يصلّونها لاجله في تلك الليلة الشريفة قد وقاه الله من التهلكة

فاجابه والده بكتاب رقيق مطلعاً اياه على ما كانوا صنعوهُ لاجله في تلك الليلة قائلًا لهُ : « إعلم يا بني انهُ قد صحّ بنجاتك قول الملاك رفائيل لطوبيًا البارّ «انّ الصدقة تنجي من الموت» . هذا يقيني ولا إخالك الّا مسلّماً بهِ . اسأل الله بعد ان اشكره على نجاتك ان تكون محافظاً على وديعة الايمان المقدس التي هرق جدودك اللبنانيون دماءهم لاجلها »

لمّا وصل كتاب الوالد الى ابنه وقرأهُ لم يتمالك من سكب الدموع ، دموع الندم على إعراضهِ كل تلك المدة عن فرائض الديانة . وكان لهُ ثلاثة اولاد ابى ان يصبغهم بماء العماد وقد بلغ اكبرهم السنة العاشرة وذلك عملًا بمبدأ الشيعة الكافرة التي كان ينتمي اليها . فاسرع في الحال واستدعى كاهناً وطهّر ضميرهُ وعمّد اولادهُ الثلاثة بعد ان اذن لبذّهُ لمبادئ شيعتهِ الفاسدة واقرّ علناً ان الدين هو وحده باب الفرح والتعزية في هذه الدنيا وفي الآخرة . وكتب لوالدهِ عن كل ذلك واخبرهُ بعزمه على الرجوع الى الوطن لمشاهدته والاشتراك معه بكل ما يقوم بهِ من الاعمال التقوية والخيرية

ولم يمرّ على هذه الحادثة بضعة اشهر حتى انجز سليم وعده لوالده وعاد الى الوطن في اواخر ربيع السنة الجارية لكنه لم يلبث ان اقنع عائلته كلها للصحبة الى حيث تدعوه اشغاله في المهجر فسافر في الاسبوع السابق للميلاد

*

في هذه الليلة ، ليلة العيد ، لا شك ان سليماً وعائلته يقومون بضيافة ثلاثة من فقراء مجاورة السفينة المسافرة بهم في عرض البحر الى الديار الاميركية وفاء لما وعد بهِ انهُ لا يدع فرصة عيد الميلاد تمرّ في كل سنة دون ان يكرّر عمل والديه الذي اعتدّه سبباً لنجاتهِ من الهلاك غرقاً في النهر متحقّقاً انّ «حسنة يسيرة تدفع بلايا كثيرة »